الجمال فى النثر

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ
وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم »
(قرآن كريم)

—

إن هذه السبائك الذهبية، أو العقود المنظمة اللؤلؤية التى صاغتها يد القدرة الربانية، ورتبتها على أكمل نظام فى الأحكام فى عالم البلاغة ، من رتب عوالم الطبيعة ونظمها على أكمل صورة فى الحسن ، لذلك ترى بين هذه الكلمات العاليات ، وبين بدائع عوالم الطبيعة اتصالا قوياً كالاتصال بين الجسم والروح، يشهد بذلك من تذوق شيئاً من طعم البلاغة فى الكلام العربى فاستجلى وجدانه شيئاً من ماء حسنه العذب السلسبيل ، ولكن لم كان هذا الاتصال ؟ وكيف كان هذا الجمع العجيب بين الكلام الذى هو صورة لفظية تشف عن المعانى المكنونة فى النفس وبين هذه العوالم الطبيعية من حيث اشتمالها على أنواع من الجمال؟ جمال كل صورة فى الطبيعة إنما هو التئامها مع الغرض الذى خلقت له . هذا القانون مستمر فى أجزاء المادة أسماه الفلاسفة وحدة النظام فى المبدعات الدال بضرورة البرهان على وحدة المبدع الذى خلق الأشياء ورتبها بمحض مشيئته فجعلها على ذلك النظام الذى يونق أعين الناظرين .

الكلام مقاطع صوتية كالبناء الذى يؤلف مجموعة صورة هندسية لها دولة ما فى عالم الحسن كذلك كان مجموع هذه المقاطع الصوتية يمثل لك المعانى النفسية كاملة الافادة بحيث تقرأ فى هذه المقاطع صورة النفس بترتيب من أتقن كل شىء ، ولكن هل خامر فكرك يوما أن أبدع صورة هندسية عنى بها أبرع الحائزين قصب السبق فى مهنة البناء شابهت بجمالها وما اشتملت عليه من إحكام فى عالم الحسن مشهداً ما من مشاهد الطبيعة من حيث الجودة والاتقان وتركه (ترك هذا المشهد) فى عين البصير ذى الوجدان الحى والقلب الحى من الاثر الشعرى ؟ قال كارليل الانكليزى : « ألا ترى الزهرة مع أنها لم تنسجها يد ناسج فقد كسيت من الحلل مالم يكسه سليمان عليه السلام فى ريعان ملكه » وهى كلمة ينسبها كارليل الى التوراة وهذا كلام صحيح ، فان ما كسيه سليمان عليه السلام ، إنما هو نسج المخلوقين وصنعهم ، أما الزهرة ، فانما نسجت حللها إبداعاً يد القدرة الربانية ، وشتان ما بين صنع المخلوق وصنع الخالق وإنما قدمت هذه الكلمات ، ليعرف أن الكلام فى عالم البلاغة ، كالبناء فى عالم البنيان فمن الكلام ما حاز درجة متوسطة فى الحسن فهو يشبه بناء له جمال . ومن الكلام ما غزر حسنه لما اشتمل عليه من جمال

لفظه و بديع تركيبه لجمال معناه، فان الألفاظ أثواب المعانى ولكن الثوب اللفظى يشف عن معناه كما يشف الزجاج الصافى عن الماء الصافى ، فاللفظ دوما تبع للمعنى بحيث متى وضح المعنى فى النفس وضوحا كاملا تبعه ضرورة تبعية اللازم الملزوم لفظه الذى هو ثوبه لأن مدلولات المعانى أسماؤها ، وهذه (الأسماء) مرتكزة فى النفس أثناء التصور فما على الكاتب الا الأجادة فى التفكير قبل الاصابة فى التعبير والتصوير اللفظي.

هذه حقيقة يجب أن ينتبه اليها الكاتبون فيعرفون أن ما ينسبونه الى اللغة العربية من القصور أثناء الترجمة إنما إلى قصورهم عن إدراك ذلك، ومن هنا يتبين لك كما سأزيده إيضاحا بعد إن شاء الله تعالى أن البلاغة في القول ، إنما هو للبلاغة فى المعني ، ولأرجع الى تحقيق ما كنت باحثاً فيه وهو أن من الكلام أيضاً ما يقع درجة سامية فى الحسن فهو دون الكلام المعجز وفوق مرتبة الوسط فهو يشبه أبدع ما أحكته يد الصناعة من الآثار المشهودة ، ولكن اذا علمنا أن الجمال فى صناعة المخلوقين مهما بلغ من الجمال فهو (أعني جمال ذلك المصنوع) إضافي لأنه ما من صورة صناعية تصور العقل بلوغها أسمى ذرى الحسن الا وقد جاء انسان فأبرز ما هو خيراً منها وأجمل وأشد أثراً فى النفس . هذه قاعدة مستمرة في عوالم الصياغة .

كذلك قد كان التفاضل بين مراتب كلام المخلوقين من الشعراء والادباء والحكماء والفلاسفة فأنك لا تجد صياغة شعرية بديعة إلا وجدت ما هو أبدع منها ، كذلك قد كان شأن آثار الادباء والحكماء والفلاسفة ، فما من نظرية لم تبلغ درجة البديهة لانها أصبحت من التجريبيات إلا وجدت ما هو خير منها وأعجب للعقل وأشد تضامنا للوجدان متى عقلها الجنان حتى تصل الى كلام معجز ، معجز فى معناه ومعجز فى لفظه وهو تركيبه وأسلوبه في تنسيقه واختيار كلماته بحيث لو بحثت اللغة لما وجدت كلمة واحدة تقوم مقام هذه الكلمة وتفى ما وفته باعتبار التئامها مع ما قبلها وما بعدها وأما إعجازه فى معناه فمن حيث إن ما أثبته هو الثابت فى عقول النظار، وما نفاه هو المنفى فحقه هو الحق وباطله هو الباطل وهو بعد هذا له صولة على النفس ذات القلب الحى لمجرد سماعه.

وهذه الصولة ، وان شئت فقل الدولة (فأن للكلام دولة) هي موسيقاه العالية والموسيقى فى الكلام ، هى عبارة ، عما اشتمل عليه ذلك الكلام ، من المعانى التى تخضع لهيبتها أعاظم الفلاسفة ، فكلام مثل هذا الكلام بلغ درجة الاعجاز من الظلم والانحراف عن الجادة الرشيدة أن يشبه بأجمل بناء في الدنيا بل العقل يقضى بصورة قاطعة أن ينظر بينه في الجمال و بين جمال الطبيعة، لجامع الاتصال بين الكلام المعجز و الطبيعة (أعني قوانينها وعوالمها) وذلك مادام مصدر الكلامين الكلام النفسي والكلام الخلقى واحداً ، وما دام المصور واحداً وهو الله عزوجل ، إلا أن عوالم الطبيعة على سبيل الأبداع والاختراع ، اما الكلام

(البقية فى الصفحة رقم ٩٨٢)